

الفصل الأول

الفلسفة وعلم الكلام

obeikandi.com

« اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا ؛ فَقَدْ كُفَيْتُمْ » ..

وقد اتبع سلفنا الصالح هذه النصيحة النبوية المعللة : فلم يحاولوا - قَطُّ - الابتداع . وما يتأتى - قَطُّ - أن ينشأ الابتداع في الأوساط الدينية السليمة ، الأوساط التي تكوّن لديها الشعور الدينيّ الحىّ بالأسوة الحسنة ، والفهم الواعى للروح الدينية الخالصة .

وقد تهيّأ لسلفنا الصالح التأسى بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وتهيّأت لهم تلاوة القرآن ، في تدبّر وفهم ، ففصلوا - في صورة حاسمة - بين ما يتأتى للإنسان أن يسير فيه على ضوء التجربة ، وأن يبتدع فيه ويخترع ، وينسّق ويؤلّف (وهى الأمور التى تتصل بالمادة والحسّ ، وتتصل بعالم الطبيعة : أرضه ، وسمائه ، وما بين أرضه وسمائه) وبين ما لا يتأتى للإنسان أن يصل إلى معرفته إلا ظناً ، أو وهماً (وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر) .

وهذان العالمان - عالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق - كانا باستمرار موضوع جدل ، ومثار نقاش بين الذين يريدون أن يصلوا إلى حقائقهما عن طريق العقل المجرّد الذى لا يستند إلى دين .

وانقسم العقليون - منذ أن دار البحث في هذه المسائل عقلياً - إلى فريقين : فريق يثبت ما وراء الطبيعة والأخلاق ، وفريق ينكرهما .

وانقسم المثبتون إلى طوائف لا تكاد تُحصّر ، وكل طائفة تتسبب إلى زعيم ترى أنه العبقري على الإطلاق ، الموقّق في كل ما يأتى وما يدعّ ، المصدّق في كل ما يُشير به أو يُعلّل له .

وكان من الطبيعي - والأمر كذلك - أن تعلن كل طائفة ، الحرب على الطائفة الأخرى ، مكذبةً مُستجيلةً لها ، راميةً زعيمها بالغباء والجهل .

(أ) ومن البديهي أن السبب في هذا النزاع : هو أن كل زعيم يختلف عن الآخر في الصورة التي يرسمها بعقله ، لعالم ما وراء الطبيعة ، ولأسس الأخلاق ومبادئها .

(ب) ومن البديهي أن سبب هذا الاختلاف في ما وراء الطبيعة والأخلاق إنما هو اختلاف العقول في فطرتها وجيلتها ، واختلافها بسبب الفطرة الموروثة ، وبسبب البيئة الطبيعية ، والبيئة المنزلية ، واختلافها بحسب الثقافة : كمها وكيفها ، واختلافها بحسب مؤثرات وظروف وملابس لا تكاد تدخل تحت حصر .

إن نوع الطعام ودرجة الحرارة ، ودرجة نقاء الهواء ، ودرجة ارتفاع المكان الذي يعيش فيه الإنسان ، وقربه أو بعده عن شاطئ البحر ، والوظيفة ، والعمل ، والأصدقاء .. إن كل ذلك له تأثير على تفكير الإنسان ارتفاعاً وانخفاضاً وعمقاً وضحالةً ، ومن الطبيعي - والأمر كذلك - أننا لو ربطنا المعرفة الخاصة بعالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق بالعقل - وشأنه كما بيتاً - لربطناهما بأساس يتأرجح ويتذبذب ولا يستقر على قرار .

(ج) وقد حاولت الإنسانية ، منذ أن بدأت تفكر عقلياً في الإلهيات والأخلاق ، أن تخترع مقاييس وموازين - عقلية - تقيس بها الصحة والخطأ في هذين العالمين ، فكانت النتيجة إخفاقاً متتابعاً .

لقد أخفق منطق أرسطو - منطق القياس - في معرفة حقائق الإلهيات والأخلاق .. وكانت أخطاء أرسطو في هذين الميدانين لا تُحصى ، ولكثرتها ولعنف الهجوم عليها : يش تلاميذ أرسطو - وهم أيضاً فلاسفة - من إصلاحها ، وانهزموا في ميدان الدفاع عنها .

وأخفق منطق فرنسيس بيكون - منطق الاستقراء - في الكشف عن عالم الغيب وعالم الخير والشر . وما كان يتأتى له أن يكشف عنهما ، وهو منطق

الكشف عن القوانين المادية ، وتبيّن الحقائق في عالم الحسّ : عالم الكون والفساد ، ولم يتناول - قط - إلى كشف الحقائق في عالم البقاء والخلود .

وأخفق منهج ديكارت ، ولم يرّض عنه كثير من معاصريه من الفلاسفة ، ولم يرّض عنه كثير ممن أتى بعده منهم ، وهاجموه في حياته وبعد مماته .

وبقيت حقائق ما وراء الطبيعة والأخلاق ، بعد ديكارت - كما كانت قبله - موضوعاً للجدل العقلي الذي لا ينتهي .

والملاحظ - على كل حال ، منذ أن بدأ التفكير العقلي في الإلهيات والأخلاق - أن السنوات تتوالى ، وعشرات السنوات ، وعشرات القرون ، ولم تنتهِ الإنسانية « عقلياً » إلى حلّ هذه المسائل .

إنها لم تنتهِ إلى حلّها « عقلياً » في الغرب ، ولم تنتهِ إلى حلّها « عقلياً » في « الشرق » ، ولم تُوفّق إلى حلّها فوق قمم الجبال ، ولم تصل إلى حلّها على شواطئ البحار .

(د) إن المعنى الذي نستنتجه من ذلك كله - وهو استنتاج يقرب من أن يكون بديهيّاً - أن حل مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق ، عن طريق العقل : مستحيل ..

وأن وضعها - إذن - موضع البحث العقلي : خطأ ..

وأنه يجب أن تعيد الإنسانية النظر في اختصاصات القوى والملكات البشرية . وإذا أعادت الإنسانية النظر في اختصاصات القوى والملكات البشرية ؛ فإنها ستجد لا محالة : أن الوضع القديم - الوضع الذي كان قبل نشأة هذا اللون من البحث العقلي عند الإغريق - هو الحكمة بعينها .

وهذا الوضع القديم : هو الذي أعاده الإسلام ، وأتبعه المسلمون ، في القرن الأول الإسلامي ، واستمر منذ بدأ الإسلام إلى نشأة « المعتزلة » ..

أما هذا الوضع ؛ فهو أن لكل قوة من القوى الإنسانية اختصاصاً معيناً

لا يتأتى أن تتعداه ، ففوة الحس ميدانها الطبيعة ، بل الظاهر المحس من الطبيعة .

إن ميدانها : الألوان ، والأصوات ، والروائح ، والطعوم ..

إن ميدانها : الإحساس الجسماني في الجسم البشري وفي خارجه ..

وهو ميدانها في الحدود التي رسمها الله تعالى لها .

وميدان العقل ودائرته ، إنما هو الفهم الواعي لما يُلاحظ ويُشاهد ويُحس ، ثم الاستنتاج والاستنباط مما يُلاحظ ويُشاهد ويُحس .

فإذا كان الأمر أمر غيب ومساير ، فليس للعقل في ذلك رأى ولا اختراع ولا ابتداء ، وكل ضرب من ذلك يقوم به العقل إنما هو خبط عشواء ، وسير في متاهات ، وسياحة في صحراء - دون مرشد - لا علامات فيها ولا أدلة .

ومن هنا كان هذا النتاج الفلسفي الضخم - في ما وراء الطبيعة والأخلاق - يشوبه الوهم في الكثير من أسسه ..

وفي الكثير من نتائجه ..

ولا يمكن الاهتداء « عقلياً » إلى ما فيه من الصواب الثابت ، أو الخطأ والانحراف .

ولكن الإنسان ، ليس حساً وعقلاً وحسب ، بل ليس الإنسان إنساناً بحسّه وعقله ؛ فقد ينزل به حسّه وعقله إلى المستوى الحيواني البحت ، فيعيش عيشة السائمة ، بل قد ينزل به حسّه إلى مستوى أقل من المستوى الحيواني ، ويصير من هذه الطائفة التي ينطبق عليها قول الله تعالى :

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(١) .

الإنسان - إذن - إنسانٌ : بروحه الشفافة ، ونفسه الزكية ، وبصيرته المضيئة ، إنه ذلك الذي تزكى ، إنه الذي صَفَتْ روحه صفاء يقربه من الملائكة .

(١) سورة الفرقان : ٤٤ .

وإذا صَفَتِ الروح وَتَزَكَّتِ النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها ، وإذا تَزَكَّتِ النفس أصبحت محلاً للإلهام وللمعرفة المستنيرة في عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر .

وفهم الحكماء القدماء - قبل العصر اليونانى - ذلك فلم يستعملوا - قَطُّ - الجدل أو القياس ، أو الابتداع العقلى والاختراع المنطقى وإنما استعملوا - من أجل معرفة الإلهيات - التنسُّك والعبادة والذكر واستخلاص النفس لله ، أو - بالتعبير القرآنى - التزكية . كانت تزكية النفس - إذن - وسيلتهم إلى المعرفة ، وكلما زادت تزكية النفس أصبح الشعور بعالم ما وراء الطبيعة وأصبح التمييز بين الخير والشر ميسوراً واضحاً .

(هـ) وسبيل تزكية النفس هذا من أجل المعرفة : سبيل فهمه الكثير من الألمعيين فى العصر اليونانى ، ومما لا شك فيه أن بذوره الأولى جاءت من الشرق ..

لقد كانت فرقة « الأورفية » فى العصر اليونانى الأول تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً واضحاً .

وكانت « الفيثاغورية » - من بعدها - تسير فى هذا الطريق ، وتؤمن أنه الوسيلة الصحيحة للوصول إلى عالم الغيب : لقد كان الجانب التنسُّكى ، وكانت العبادة ، وكان الذكر .. كان كل ذلك وغيره - مما يتصل بوسائل استخلاص النفس لله - شيئاً عادياً فى « الفيثاغورية » ..

لقد كانت « الفيثاغورية » تصفية نفس وتطهيراً أخلاقياً ، وكانت ابتعاداً عن الرجس ، وانغماساً فى عالم الخير ، وكانت - بعبارة مختصرة - تطهيراً للباطن والظاهر .

وجاءت « الأفلاطونية » ..

وكان « أفلاطون » يصطفى من تلاميذه : ذوى النفوس الشفافة والشعور

المرهف ، وهم قلة قليلة ، فيسلك بهم سبيل التنسك ، سبيل التزكية .
وعلى إثر ذلك جاءت «الأفلاطونية الحديثة» التى تنتسب إلى «أفلوطين
المصرى» ، والتى بلغت بطريق التنسك والتزكية شأواً بعيداً .
ولكن الجانب الحيوانى فى الإنسان كان يجره باستمرار إلى الإخلاق إلى
الأرض ، واتباع الهوى ، ولم يكن طريق التطهر والتزكية من السهولة بحيث
يلججه كل طارق .

إن الارتفاع بالنفس سبيلاً شاقاً ، ومن أجل ذلك عدل الشطر الأكبر من
اليونان عن طريق التزكية إلى طريق الجدل العقلى ؛ فكانت الفلسفة العقلية
اليونانية ، وكان الانحراف عن الطريق السليم .

والذى تولى كِبَر ذلك ، ودعم أركانه ، وبلغ به القمة ، إنما هو «أرسطو» .
ومما لا ممارسة فيه ، أن الانحراف فى البحث عما وراء الطبيعة يدين بالكثير
- أو بالأكثر - إلى أرسطو .

وأخفق أرسطو فيما وصل إليه من نتائج عما وراء الطبيعة ..
وأخفق الذين تابعوه ..
وأخفق الذين أتوا من بعدهم .

وترى الإنسانية هذا الإخفاق المتتابع ، ولكن المحاولات - لمعرفة الغيب عن
طريق العقل - لم تنتهِ بعد ..

ومع ذلك فقد كان عند الكثير من مفكرى اليونان حَدَسٌ صادقٌ بالوضع
الصحيح فى مثل هذه الأمور ، لقد كانوا يؤمنون بأن الفكرة الصحيحة عن عالم
الغيب وعن الأخلاق ؛ إنما تتأتى عن طريق رسول يتلقى عن الله الوحي ليبُلِّغه
إلى بنى البشر . والقصة التالية توضح هذا الشعور لديهم ..

فقد اجتمع - كما يقص أفلاطون - سقراط واثنان من الفيثاغوريين هما

سمباس ، وقابس ، وأخذوا يتحدثون عن خلود النفس ، والاستدلال - عقلياً - على بقائها ، فلا يكاد يستقيم لهم الدليل في وضوح وثبات ، ثم « يسكت سقراط ويسكت الجميع » .

وبعد هنيهة يقول سمباس : « إن العلم بحقيقة هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن - اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل . فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى ، والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب ، ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن ، أعنى : إلى وحي إلهي » .

المركب الأمتن الآمن - إذن - إنما هو الوحي الإلهي ، أما العقل فَمَثَلُ مَنْ يتذرع به كَمَثَلِ مَنْ يخاطر بقطع البحر على لوح من خشب .

لقد حاول اليونانيون - إذن - البحث العقلي ، لاجتياز خضم ما وراء الطبيعة ، لأنه لم يكن لديهم وحي يرجعون إليه في الهداية والإرشاد ، ولو كان لديهم هذا الوحي لما اختاروا العقل به بديلاً ، ولما كانت الفلسفة اليونانية العقلية ، ولبقى توزيع اختصاصات القوى الإنسانية والملكات البشرية على استقامته الأولى :

- الحسُّ لعالم الطبيعة .

- والعقل للاستنتاج مما يأتي به الحسُّ .

- أما الروح والبصيرة فإنها لعالم الغيب ، وعالم الخير .

ولقد تأثر علم الكلام الإسلامي بالتيار العقلي اليوناني في نهجه العقلي ، وفي اتجاهه الاختراعي الابتداعي ، وكان علم الكلام بذلك « فلسفة » : يرتطم بكل ما يعترض الفلسفة من عقبات ، وأضاع - بمقدار قربه من الفلسفة - ما كان ينبغي له من قداسة ، وكان بابتعاده عن النهج القرآني السليم الفطري مثيراً

لكثير من المشاكل التى تفرّق المسلمين وتجعلهم فِرَقاً وأشياءاً متنافرين
متخاصمين..

ومع ذلك فإن العودة إلى النهج السليم ميسورة ، وعلى قادة المسلمين فكرياً
ودينياً أن يساهموا فى إيضاحه .

* * *